المنهج التاريخي في النقد العربي
وتجليات مرجعياته لدى طه حسين (دراسة وصفية)

د. عبد الحميد محمد عامـر
جامعة مصراتة

مقدّمة:

منهج النقد التاريخي يعد واحداً من المناهج النقدية المتعددة التي أسّست على قواعد كانت نتاجاً لفلسفات وتيارات فكرية عرفتها الإنسانية عبر مسيرتها الطويلة، ترجع في ماضيها إلى أفلاطون وأرسطو اللذين شغلت فلسفتهما التفكير الإنساني لدى الغرب، وتبلورها في مطلع القرن التاسع عشر عن طريق أبرز المفكرين الغرب الأوائل أمثال: (سانت بيف)، و(تين)، و(برونتير).

وفي إطار التبادل الحضاري صار المنهج يحمل سمات التفاعل بين الأدبين العربي والغربي، بوصفه يمثل بواكير هذا التفاعل لدى المفكرين العرب الذين تلقوه وتبنوه مثل: (طه حسين) وغيره.

والباحث في هذا السياق العلمي لا يهدف إلى شيء سوى تتبع بدايات الأثر الفكري للإنسانية وعما اكتسبته من تجارب فيما يتعلق بأزمة دراسة النص الأدبي لدى الغرب أولاً ثم وعي ذلك لدى العرب، والكشف عما يتمتع به المنهج العلمي التاريخي من اهتمام تجاه البعد التاريخي (الحضاري)، أو البعد المنهجي ومدى مطابقته لدراسة النص العربي على وجه الخصوص لدى طه حسين أبرز المنظرين له عربياً ثانياً.

وقد سعى الباحث في تتبع ظاهرة التفاعل عن طريق (المنهج) منذ البدايات الأولى أوروبياً وتتبع مراحل استقراره إلى ما يعرف باللانسونية التي هي آخر مراحل تحولاته، باعتبار أنّ ملامح التفاعل بين العرب والغرب يظهر جلياً في هذا المنهج.

فسعت الدراسة إلى رصد التصورات الفكرية للمنهج ومدى تأثيرها في ذهن المثقف العربي تاريخياً، ومن ثم قسّم البحث منهجياً إضافة إلى تمهيد ومقدمة وخاتمة إلى مبحثين رئيسيين يمثل كل منها فكرة ترصد مرحلة زمنية ومنهجية منتمية إلى تفكير بعينه، فالتمهيد: يشتمل على فكرة تأصيل الجذور، يتتبع الباحث المنهج التاريخي في الثقافة الغربية وبيان جذوره التأسيسية الأولى،

وتشكله في سياق المنهج اللانسوني، والمبحث الأول: يصدر عن فكرة التلقي عربياً لمراحل تكوينه وتطبيقه في النقد العربي. وأما المبحث الثاني فيعالج تجليات المنهج لدى أبرز النقاد (طه حسين)، ليتجه البحث إلى تدليل إشكالية، يمكن إجمالها في أهمية رصد البدايات التاريخية للمنهج نظراً لما يشكّله المنهج من حضور في ذهن الناقد العربي، مع ظهور مناهج عديدة قضت عليه لدى الغرب ليظل له حضور في النقد العربي، إذ يرى البعض أنه أيسر السبل للوصول إلى النص الأدبي العربي، ثم اختتم البحث بإبراز أهم النتائج.

وقد سعى الباحث نحو الاعتماد على المصادر والمراجع التي تسهل من عملية الوصول إلى هدف الدراسة، فقد كانت في ظل هذه الكثرة من المراجع وهذا الزخم الهائل من المعلومات التي ملأت الكتب والمراجع العلمية المتنوعة إشكالية من حيث الاختيار والتنقيب عن صلاحيتها، وتعارض بعضها عند بعض النقاد العرب، وبالتالي فقد اختار الباحث منها ما كان متصلا بالموضوع مباشرة أو ما يخدم طبيعة الموضوع، وهو في هذا يستعين بأقدمها لقربها بعهد المرحلة التاريخية، أو بما ينتسب إلى أحد رواد المنهج في النقد العربي (طه حسين) مباشرة.

أولاً: المنهج التاريخي (بحث في التأصيل والجذور) لدى الغرب.

ثانياً: التحولات الفكرية في المنهج (اللانسونية).

أولاً: المنهج التاريخي في النقد الغربي.

مفهوم المصطلح (المنهج):

المنهج لغةً هو "الطريق الواضح"[1]، واصطلاحًا، هو خطوات منظمة يتخذها الباحث لمعالجة مسألة أو أكثر ويتتبَّعها للوصول إلى نتيجة، وبناءً عليه فالمنهج التاريخي للأدب بوصفه مصطلحاً هو المنهج الذي تتم فيه دراسة الأديب وأدبه أو الشاعر وشعره، ودراسة النص في ضوء حياته وسيرته وبيئته والظروف التي أثَّرت عليه عن طريق معرفة عصره الذي عاش فيه، ومعرفة محيطه ومدى تأثير ذلك كله في نتاجه الأدبي أو الشعري؛ والتطلع نحو دراسة الأحداث العامة والخاصة التي مرَّ بها الأديب. أي أنّ الأحداث التاريخية وشخصية الأديب يمكن لها أن

(1) ينظر: ابن منظور، لسان العرب، دار الحديث القاهرة، 2003م، ج: 8، ص: 714. وينظر: مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، ط:4، 2004م، ص: 957.

تكون هنا عوامل مساعِدة على تحليل النص الأدبي وتفسيره. ولهذا نرى أنّ هذا المنهج يعمل على إبراز الظروف التاريخية والاجتماعية التي أُنتِجَ فيها النص، دون الاهتمام كثيرًا بالمستويات الدلالية الأخرى التي يكشف عنها هذا النص ودراسة مدى تأثيره على القارئ، بعكس النظريات النقدية الحديثة، كالبنيوية والتفكيكية، اللتين أعطتا السلطةَ للقارئ وجعلتاه سيدًا على النص الأدبي لا ينازعه منازع[2].

فهو قراءة تاريخية في خطاب النقد الأدبي، تحاول تفسير نشأة الأثر الأدبي بربطه بزمانه ومكانه وشخصياته، أي أنّ التاريخ هنا يكون خادمًا للنص؛ ودراسته لا تكون هدفًا قائمًا بذاته، بل تتعلق بخدمة هذا النص[3].

ومن ثم لا بدَّ للناقد أن يتحقق من صحة الرواية الأدبية بالشك فيها، من حيث إنّ مبدأ الشك مبدأ علمي يجب أن يستعان به من أجل البحث عن الحقيقة وتوثيقها (في المرويات التاريخية والتراثية في شكل خاص)، ومن أجل التحقق من مكان حدوث ظاهرة ما وزمانها، وصولاً من خلال ذلك إلى الحقيقة واليقين، وخاصة في الأدب الشفاهي، كما يتفاعل المنهج مع النص الأدبي بوصفه وثيقة تاريخية، فلا يلتفت إلى القيم الجمالية والفنية كثيرًا، أي لا يبحث في النص من حيث شكله الفني ومعماريَّته الجمالية وإيقاعه.

والمنهج التاريخي بوصفه مصطلحاً له أثره في إتمام العملية النقدية بصورة خاصة، من كونه ينبه إلى أهمية ما هو خارج النص ومعرفة سياقاته، وبهذه الطريقة، لجأ النقاد إلى استنباط القيم من الواقع الخارجي، ومما هو متخصص من الأبحاث للتوصل إلى مجموعة من التراكيب والتأويلات، حتى وصل الأمر إلى الجمع بين البيئة والأدب، إذ جعلوا الأدب بمثابة (ظل) ينساق وراء ركب البيئة، وقد شوهت هذه (الظلال) الكثير من النصوص الإبداعية لدى الأدباء والشعراء معًا.[4]

وقد اعتمد على هذا الإحساس عددٌ من النقاد العرب القدماء لدراسة الأدباء والشعراء في بيئاتهم، مثل عبد القاهر الجرجاني وابن سلام وغيرهما ممَّن توصلوا بحسِّهم السليم إلى أثر بيئة

(2) ينظر: خالص مسور، منتديات ستار تايمز، المكتبة الإلكترونية شبكة المعلومات الدولية الانترنت. د، تر.
(3) ينظر: صلاح فضل، مناهج النقد المعاصر، دار الآفاق العربية القاهرة، ط:1، 1997م، ص251.
(4) ينظر: المرجع السابق، ص252.

البادية في شعر العرب مثلاً، فقالوا إنّ شعر البادية يمتاز بالخشونة والجفاف، – بعكس شعر الحَضَر الذي يغلب عليه طابعُ الرقة واللين..[5]

كما يشير مفهوم (المنهج) بوصفه مصطلحاً تشكل في ذهن المتفق في نطاق العلوم الإنسانية إلى العديد من المفاهيم التي تحدد بغيرها، وقد ارتبط تعريف (المنهج) بأحد تيارين:

الأول: ارتباطه بالمنطق، مما جعله يدل على الوسائل والإجراءات العقلية طبقاً للحدود المنطقية التي تؤدي إلى نتائج معينة، وهي كلمة انطلقت من اليونانية واستمرت في الثقافة الإسلامية لتصل إلى عصر النهضة محتفظة بالتصورات الصورية طبقاً للمنطق الأرسطي بحدوده وطرق استنباطه، وفي هذه المرحلة يطلق عليه المنهج العقلي، لأنه يلتزم بحدود الجهاز العقلي ليستخرج النتائج منها، وفي اللحظة ذاتها حريص على عدم التناقض.

الآخر– ارتباط المفهوم في مصر بعصر النهضة بحركة التيار العلمي، وقد سلك المنهج العقلاني المنطقي بعد عصر النهضة منهجاً مغايراً يتسم بنوع من الخصوصية، فاقترن في هذه الفترة بالتيار العلمي، وهذا التيار لا يحتكم إلى العقل فقط بل إلى الواقع ومعطياته وقوانينه، ومن ثم اقترن بنمو الفكر العلمي التجريبي، فولد ما يسمى بالمنهج التجريبي ليحصل بذلك تعايش بين المفهومين الأول والثاني ليراد به المنظومة المرتبة التي يمكن عن طريقها الوصول إلى نتائج منطقية، وفي العصر الحديث وفيما يخص مفهوم المنهج النقدي فله مفهومان أحدهما عام والآخر خاص[6].

أهم رواده

سانت بيف (1804–1869)

كان يبحث في النتاج الأدبي، لا من حيث دلالته على المجتمع فحسب، مثلما فعلت (مدام دي ستال) ولكن من حيث دلالته على مؤلفه، حتى جاءت أحكامه في النقد أحكاماً على شخصيات المؤلفين، وقد اتخذ لنفسه مبدأ فيما قرره في تصويره شخصية الكاتب، فهو من كبار النقاد الفرنسيين، ومن آباء النقد الحديث في العالم، وقد درس الطب في بادئ الأمر، وسرعان ما ترك الطب إلى الأدب والنقد، وقد تركت دراساته الطبية أثراً عميقاً في نزعته الأدبية، إذ أراد أن

(5) ينظر: أحمد أمين، النقد الأدبي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط:4، 1967م، 314/2.

(6) ينظر: رامز الحوراني، نشوء النقد الأدبي وتطوره، منشورات جامعة سبها، ليبيا، ج : 2، ص 23.

يجعل من النقد ما يشبه التشريح الطبي في تحليل العمل الأدبي واتخاذه مرآة لنفس المؤلف، كي يكشف عن دقائقها، وقد انضم أولاً إلى الحركة الرومانتيكية ثم تركها، وعنده أنّ النقد الأدبي يجب أنّ يكون خالقاً كالأدب، واتجاهه في نقده تحليلي تطبيقي، على أن نقده في منهجه وفي أكثر حالات تطبيقه مازال ذا قيمة وصار النقد الأدبي جنساً أدبياً آخر لأول مرة في تاريخ النقد، ونجاح الناقد الأدبي يكون مقدار نفوذه في شخصية الكاتب الذي ينقده.(7)

وتكمن وظيفة النقد عند (سانت بيف) هي النفاد إلى ذات المؤلف لتستشف روحه من وراء عباراته بحيث يفهمه قرَّاؤه، وفي ذلك يضع الناقد نفسه موضع الكاتب، ويقرّر نظريته في التاريخ الطبيعي لفصائل الفكر، فيرى أنّ كل كاتب ينتمي إلى نوع خاص من التفكير، فإذا بحث في طبائع العقول المختلفة تبيّن أنها" تنتمي إلى بعض نماذج وبعض أصول رئيسة، فمعرفة أحد كبار المعاصرين تشرح لك وتبعث أمامك طبقة من الموتى، لما بينه وبينهم من تشابه واضح، ومن وجود بعض خصائص للأسرة الفكرية التي ينتمون إليها جميعا، وهذا مطابق تماماً لما في علم النبات بالنسبة للنباتات، وما في علم الحيوان بالنسبة لأنواع الحيوانات، هناك إذن تاريخ طبيعي... لأسر الفكر الطبيعية" (8).

ولقد دعا "سانت بيف" في ظل منهجية نقده هذه إلى "دراسة الأدباء دراسة علمية تقوم على بحوث تفصيلية لعلاقاتهم بأوطانهم، وأممهم، وعصورهم وآبائهم وأمهاتهم، وأسرهم، وتربياتهم، وأمزجتهم، وثقافاتهم، وتكويناتهم المادية، الجسمية، وخواصهم النفسية والعقلية، وعلاقاتهم بأصدقائهم، ومعارفهم، والتعرف على كل ما يتصل بهم من عادات وأفكار، ومباديء مع محاولة تبين فترات نجاحهم وإخفاقهم وجوانب ضعفهم، وكل ما اضطربوا فيه طوال حياتهم في الغدو والرواح وفي الصباح والمساء" (9) .

---

(7) ينظر: المرجع السابق، ص: 48.

(8) ينظر: نقلا عن المرجع السابق، ص: 49.

(9) ينظر: ستانلي هايمن، النقد الأدبي ومدارسه الحديثة، ط 1: ت: د.إحسان عباس ود. محمد يوسف نجم، دار الفكر العربي، بيروت. ب. ت، ص: 49.

هيبوليت تين (1828-1863)

في النصف الأخير من القرن التاسع عشر لم يؤثّر ناقد في عقلية المفكرين والكتّاب مثلما أثّره (تين) وغيره مثل (جاستون باري، برونتير)، حيث كان لهم الدور الفاعل في تمثيلهم لروح العصور العلمية؛ الأمر الذي ترك أثراً كبيراً في المذاهب الأدبية وفي النقد معا، وهو ناقد ومؤرخ وفيلسوف من فرنسا، أكبّ على دراسة ثقافة عصره من علوم نفسية ورياضية وطبيعية إلى ثقافية واسعة وفي التاريخ والفلسفة، ويبني(تين) نظريته على مبدأين:

– إنّ التأثير متبادل بين العوامل الطبيعية والعوامل النفسية التي تتظافر معاً عل نمو الجنس البشري واطراد تقدمه.

– إنّ بحوث العلم لا بد أن تؤثر في الأدب والفن، وهو بذلك مدين للفلسفة (الوضعية) لعصره وعنده أن الطبيعة تتحكم في تطوير الإنسان بسلسة من الإحداث تؤثر تأثيراً مزدوجاً في نواحي تكوينه النفسية والجسمية معاً، هذه العوامل النفسية والطبيعية التي إليها ترجع الخصائص الثقافية والاجتماعية لكل أمة، وهي نفس العوامل التي ترجع إليها خصائص كل شعب في أدبه وفنه، وقد حصرها في ثلاثة عوامل هي: الجنس، البيئة، العصر.[10]

فيرديناند برونتير (1849-1906).

كان أستاذ تاريخ الأدب والنقد بباريس، وقد كان معجباً بأدب القرن السابع عشر ويرى ما يراه الكلاسيكيون من ضرورة الغاية الخلقية للأدب، ولهذا كان ضد حركة الفن للفن، ويعتقد في تطبيق نظرية التطور الدروينية على الأدب، وثار بنظرياته ضد النقد الذاتي وأراد أنّ يكون النقد مؤسسًا على حقائق التاريخ والبيئة، ومن ثم صار يبحث في النقد متأثراً أعظم التأثر بنظرية (دارون) في التطور، وبروح العصر ورواج هذه النظرية وكثرة البحوث فيها فيما يخص أصول الأسرة والخلق والمجتمع، فأخذ يدعو إلى أن نظرية التطور يجب أن ينتفع بها في الأدب، وأنها ستقود حتماً إلى المقارنات بين الأدب القومي وما سواه من الآداب، فأخذ يتأمل في الأجناس الفنية وطبعتها ووجد أنّ بينها صلات كثيرة من بينها:

(10) ينظر: المرجع السابق، ص: 56.

1- إنّ هذه الأجناس لها وجود خارجي ثابت متميز يختص فيه كل جنس أدبي بمميزات تفّرق ما بينه وبين ما عداه، على الرغم من وجود مشابهات بين بعض الأجناس الفنية أحياناً.

2- ونتيجه أخرى هي أنّ كل جنس أدبي له زمان خاص به يولد وفيه ينمو ويموت، فله حياة خاصة به في امتداد زمني معين، مثل الأجناس الحيوانية. (11)

و تطبيقاً لهذه النظرية يجب أن يتجاوز البحث حدود لغته إلى لغات أخرى، يبحث في آدابها عن أصول الجنس الأدبي الذي يعالجه وهو يمثل دراسة القصة التاريخية في فرنسا تكتب كأنها فصل في تاريخ تأثير الأدب الانجليزي في الأدب الفرنسي، تأتي أهمية النظرية منحصرة في فرضها دراسة الآداب الأخرى استكمالا لتاريخ كل أدب قومي.

ثانياً: التحولات الفكرية في المنهج.

ما قبل اللانسونية:

في الثلث الأخير من القرن التاسع عشر، تطور المجتمع الفرنسي تطوراً سريعاً في مختلف المجالات، وذلك للنهضة في الحركة العلمية والثورة الصناعية، فظهرت إثر ذلك طبقات اجتماعية جديدة إلى جانب البرجوازية الكبيرة التي قهرت النبلاء ورجال الكنيسة عقب الثورة الفرنسية، وأهم هذه الطبقات الجديدة البرجوازية الصغيرة من المثقفين وأصحاب المهن الحرة، ثم طبقة العمال التي صار لها دور معتبر في تسيير المجتمع الفرنسي بوساطة نقاباتها، وتعددت بذلك الاتجاهات السياسية، فاشتد الصراع السياسي بين الملكيين والجمهوريين من جهة، وبين الجمهوريين والاشتراكيين وغير الاشتراكيين من جهة أخرى، وفي ظل هذه الأجواء التصادمية عرف النقد الأدبي في فرنسا الحدة والتشرد في الآراء والتعصب لها، فظهرت بذلك اتجاهات نقدية متعارضة متناقضة أهمها النقد العلمي أو الموضوعي ويمثله كل من برونتير، و رينان، ويهدف إلى إضفاء الطابع العلمي على النقد العلمي باقتباسه قوانين وأسس من علوم ومعارف أخرى، وتطبيقها في دراسة الظاهرة الأدبية، وصار يمثل النمط المحافظ سياسياً ودينياً في المجتمع، ثم النقد التأثري أو الذاتي أو الذوقي، ويمثله كل من(جون لومتر) و(أناطول فرنس)،

(11) ينظر: نفسه، ص: 71.

وهو يرفض كل حكم على النص الأدبي؛ لأن الأدب إبداع هدفه المتعة والإمتاع، والمتعة مسألة ذوقية تختلف من شخص إلى آخر، ومن العبث تقنين ذلك وقد كان يمثل المتفتحين سياسياً ودينياً من جمهوريين واشتراكيين[12].

مفهوم المنهج اللانسوي (اللانسوية):

تعني اللانسونية نسبة إلى العالم الشهير (جوستاف لانسون) الذي تتلمذ على يديه أشهر النقاد العرب، وهي مصطلح أطلقه جماعة من الأدباء والنقاد الفرنسيين أمثال (شارل بيفي، وأغاطون) سخرية بالمنهج التاريخي في دراسة الأدب والتاريخ، وقد كان له الدور الفاعل في تطوير أسس المنهج التاريخي (العلمي) على الرغم من أنّ بداياته الأولى قد كانت في ظل المنهج التاريخي العلمي، وتمثل اللانسونية مرحلة تطور المنهج العلمي التاريخي على يد هذا العالم الفرنسي لتصبح مرحلة تحول على مستوى التفكير المنهجي فيما يتعلق بدراسة النص الأدبي تاريخياً، فاللانسونية حركة فكرية متطورة للمنهج التاريخي ويشير مفهوم اللانسونية النظري إلى المنهج التاريخي في دراسة الأدب والتأريخ له كما حدده لانسون.[13].

وقد ضمّن لانسون عناصر أساسية لمنهجه تمثلت في مقالته المشهورة التي جاءت وفقاً للمفردات الريئسة الآتية: الأسس النظرية للمنهج، الخطوات العملية، الصعوبات [14]

الأسس النظرية: تتجدّر اللانسونية من جملة أسس هي:

1- الأخذ بالروح العلمية.

فهي تعني له تلك الروح العلمية ليس بمناهجها؛ بل هي مجموعة صفات على الباحث أن يتحلى بها أثناء التعامل مع مادة بحثه مثل: الموضوعية، استطلاع المعرفة، والحث والصبر الذؤوب، وعدم تصديق النتائج الأولية بسهولة[15].

(12) ينظر: عبد المجيد حنون، اللانسونية وأثرها في رواد النقد العربي الحديث الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2006، ط:1، ص:47.

(13) ينظر: عبد المجيد حنون، اللانسونية وأثرها في رواد النقد العربي الحديث، مرجع سابق، ص:61.

(14) ينظر: محمد منذور ترجمة، النقد المنهجي عند العرب منهج البحث في تاريخ الأدب ص:395.

(15) ينظر: المرجع السابق، ص:408.

2- فهم العلاقة بين الذوق والمعرفة.

وهي أساس اللانسونية حيث جمع بين النقد العلمي والتأثري، ومن ثم انطلق لانسون من مبدأ يتمثل في أن كل حكم أدبي نزيه وكامل يتضمن عاملين: أحدهما غير ذاتي، وهو المعلومة التاريخية، والآخر ذاتي وهو تذوق الأثر حسب ذوق كل واحد، وهذا ما جعل لانسون يجمع بين المعرفة والذوق في دراسة الأدب والتاريخ، مع وضع ضوابط معينة تكبح جماح الحساسية الشخصية وتضع تأثرات الغير موضعها الملائم لها.(16)

الخطوات العملية:

وهي تتمثل في معرفة النصوص الأدبية ومقارنتها بعضها ببعض لتميّز الفردي من الجماعي والأصيل من التقليدي وجمعها في أنواع ومدارس وحركات ثم تحديد العلاقة بين هذه المجموعات، وبين الحياة العقلية والأخلاقية والاجتماعية ويتمثل ذلك في الآتي:

أ- معرفة النص والوصول إليه كاملا ووضع فرضيات يتحقق من خلالها ذلك مثل: هل نسبة النص صحيحة؟ وهل هو كامل غير ناقص... إلخ ثم الإجابة عنها.

ب- دراسة نفسية المبدع التي تبدو من خلال تحويراته في النص من خلال:

- تغيير النص من طبعة إلى أخرى.

- دراسة أوجه الحذف والزيادة أو الإضافات إذ أنها تكشف عن تطور ذوق المبدع وأفكاره وأحاسيسه، وقد تكشف عن المخاوف أو الكبت الذي دفعه إلى الحذف.

- كيف يكون النص من المسودة الأولى إلى الطبعة الأولى؟ وعلام تدل المسودات إن وجدت، من حيث ذوق الكاتب ومبادئه الفنية ونشاطه النفسي؟ وأنّ دراسة مسودات الكاتب تكشف مقارنة مع الطبيعة الأولى من مراحل رسم المبدع للصورة الأدبية وأسلوبه في توظيف الكلمة المناسبة، ومن ثم يستطيع الدراس تلمس نشاط المبدع النفسي.(17).

ج- شرح النص وتحليله:

شرح مفرداته وتراكيبه وجمله مستعيناً الباحث في ذلك بتاريخ اللغة، والنحو، والمعجم التاريخي لتحديد دلالة الألفاظ كما كانت شائعة زمن صدور الأثر، وليس كما نعرفها الآن،

(16) ينظر: عبد المجيد حنون، اللانسونية وأثرها في رواد النقد العربي الحديث، مرجع سابق ص: 69.

(17) ينظر: المرجع السابق ص: 73.

وشرح العلاقات الغامضة بين الجمل والفقرات والإشارات التاريخية للفظ، تم الإشارات المتعلقة بحياة الكاتب نفسه حالة كون النص مرتبطا بحياته.[18]

د- الأصول والمصادر:

يقصد بها دراسة حياة المؤلف دراسة تاريخية مفصلة ضمن إطارها العلمي والثقافي منذ الولادة حتى الوفاة، وربط كل ذلك بإبداعه، وذلك لإيمانه أنّ الأدب تعبير عن المجتمع، وضمن ذلك فهو يؤكد على دراسة المصادر والأصول التي استقى منها المؤلف موضوعاته أو صوره الأدبية مثل كتب التراث الأدبي.[19]

هـ- التأثير والنجاح:

ويقصد به ذيوع الأثر الأدبي بين الناس ومعرفة تأثيره فيهم ومدى نجاحه، لكي يستقبحه لعدم تلاؤمه مع ذوق وفكر المتلقي لإسفافه أورقية، ولا يعني النجاح بالضرورة التأثير؛ لأنّ دراسة نجاح أثر ما وتأثيره في المجتمع عملية شاقة وشيقة في الوقت نفسه لأنها الوسيلة التي تبيّن لنا مدي تحقيق الأدب لوظيفته الاجتماعية، وقد تشير إلى أنّ دراسة نجاح تأثير أثر أدبي في المجتمع كان بداية لنشأة علم الاجتماع الأدبي.

الصعوبات والأخطاء:

تعرض لانسون في مقالته للصعوبات التي تواجه الناقد؛ لأنّ اللانسونية تقوم على الجمع ما بين الذوق أو التأثر من جهة والمعرفة أو العلم من جهة أخرى، وما على الباحث إلاّ أن يتقيد بالخطوات العلمية الدقيقة لكشف أسرار النص، أما من حيث الصعوبات فيمكن إيجازها في الآتي :

1- إنّ الناقد والدارس للعمل الأدبي يبحث عن خصائصه الحسية والفنية منطلقا في البدء من ذوقه، وبذلك يعرض نفسه لبعض الصعوبات المتمثلة في:

- الصعوبة في التحكم في أحاسيسه تحكماً تاماً.
- الاهتمام بالأحداث العامة دون الأحداث الخاصة لسهولة ذلك وعمومية الأولى وتفرد الثانية.

2- البحث عن أصالة المبدع ومظهرها المتفرد المستقل بين التراكم الأدبي.

(18) ينظر: المرجع السابق، ص:73، وكذلك محمد منذور، مرجع سابق، ص:410.

(19) ينظر: عبد المجيد حنون، اللانسونية وأثرها في رواد النقد العربي الحديث، مرجع سابق ص: 75.

3- صعوبة الفصل بين تأثير الأثر الأدبي في ذاتنا وتأثرنا به، لأنّ خاصية الأثر الأدبي إثارة استجابات في ذوق القارئ وأحاسيسه وخياله، ولانسون يؤكد على أنب ظلال ومفارقات قد لا تحتويها الألفاظ بغير الإيماءة الخفيفة والإيماءة البعيدة[20].

إنّ النقد الأدبي التقليدي يمكن استخلاصه في خطوط عريضة بين سانت بيف، وبرونتير، ولانسون، فهو يخضع إلى مسلّمات النقد الذي يستلهم من السيرة أو من تاريخ الأدب، وقد يركز سانت بيف على السيرة بينما ينظر لانسون في سياق جديد لأنها تهدف إلى اكتشاف الواقع الذي اتخذه الكاتب أنموذجاً أمامه، وبذلك يشير سانت بيف إلى أنّه يريد أن يكون في مقدور هذه الدراسات الأدبية الإفادة يوماً ما في إقامة تصنيف للعقول، أما برونتير فموضوع النقد عنده هو الحكم على الآثار الأدبية وتصنيفها وتفسيرها، ولانسون يفكر في تطبيق الطرائق المعتادة في التاريخ على ميدان الأدب، وهي تمييز فترات وتحديد أميالها الطاغية، كما أنّه يهتم بالقلة المغمورة ليميز ما يفصل الكاتب العظيم عن الكتّاب الصغار الكثر، وهو يتمنى أن تدرس السيرة بقدر ما يدرس المحيط وأن يشير الناقد بدورهما الحاسم معاً، وفي هذا التصور التصور أيضاً يبحث عن الينابيع وتحليل التأثيرات حتى يكتشف خصوصية كل جملة، أو خصوصية النص، أو المقصد الذي حرك مخيلة الكاتب.[21]

المبحث الأول

المنهج التاريخي في النقد العربي (بدايات التلقي)

حركة الوعي في الأدب العربي و بدايات النهضة:

تغيّر الحال في أواخر القرن التاسع عشر لأسباب جمّة منها:

الحلمة الفرنسية على مصر، ونشأة المدارس الأجنبية المختصة بالإرساليات وغيرها من الوطنية العصرية التي بنت مناهجها نوعاً ما على الطراز التهذيبي الحديث، وانتشار فن الطباعة

(20) ينظر: محمد منذور، منهج البحث في الأدب واللغة، دار العلم للملايين، بيروت، ط:2، 1982م، ص:15.

(21) ينظر: جان لوي كابانس، النقد الأدبي والعلوم الإنسانية، ترجمة: فهد عكام، دار الفكر، سوريا، ط:1، 1982م، ص:7-13.

الراقي في الشرق الأدنى، وبناء المكتبات العامة والخاصة، واشتغال المستشرقين بالآداب العربية وعلومهم، نهضة التمثيل في الشرق العربي[22].

أما الحقيقة التي لا مجال للابتعاد عنها أنّ احتكاك العرب بالغرب وامتزاج الأمة العربية برجال أوروبا هما أساس معظم الأسباب التي ذكرت؛ كي يظهر واضحاً أنّ حملة نابليون على مصر عزمت على نشر أساليب المدنية الأوربية وأسبابها في الشرق وإشعال الثورة الصناعية والفنية فيه، وهذا بلا ريب عامل كبير في النهضة العربية الحديثة.[23] وفي ظل هذا التأثر غير المنهجي بالمذاهب الغربية بدأ الأدب العربي لحظة التجديد في الشعر الغنائي ثم في المسرح والقصة، وقد كانت النهضة الأدبية بالشعر لأنه أعرق الأجناس الأدبية التي ورثها العرب عن أسلافهم، حتى كان مشغلة نقادنا القدماء، فجاءت ملامح التجديد في المرحلة العربية على يد خليل مطران عام (1872–1949م) وعباس العقاد وغيرهما[24]، كما أنّ نهايات الربع الأول من القرن العشرين كان تاريخاً لبدايات الممارسة النقدية التاريخية، على يد نقاد تتلمذوا –بشكل أو بآخر– على رموز المدرسة الفرنسية.[25].

تأثير النقد الفرنسي في الناقد العربي أواخر القرن التاسع عشر:

نتيجة للاتصال المباشر بالأدب الفرنسي، فقد ظهر كل من الشيخ نجيب الحداد، محمد روحي الخالدي، وقسطاكي الحمصي الحلبي، على التوالي في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين بآثارهم النقدية، التي كانت نتيجة محققة لما تعلموه عبر اطّلاعهم على الأثر الفرنسي، فكانت أصداؤه على الأدب العربي ظاهرة وواضحة، وقد أدخلوا النقد العربي الحديث مفاهيم فرنسية نقدية وأدبية، وعرّفوا القارئ العربي بالحركة النقدية الفرنسية وأعلامها، تمثل ذلك في صورة كتب ومقالات مختلفة لا يسع المجال البحثي لتناولها.[26]

(22) ينظر: المرجع السابق، ص: 144_. ينظر: أيضاً حلمي مرزوق، تطور النقد والتفكير الأدبي الحديث في الربع الأول من القرن العشرين، النهضة العربية، بيروت، 1983م، ط:1، ص: 145

(23) ينظر: المرجع السابق، ص: 68.

(24) ينظر: محمد غنيمي هلال، الأدب المقارن، مرجع سابق، ص: 409–410.

(25) ينظر: أنيس النصولي، أسباب النهضة العربية في القرن التاسع، حققه وقدم له، عبد الله الطباع، دار ابن زيدون، بيروت، ط:1، 1985م، ص:51.

(26) ينظر: عبد المجيد حنون، اللانسونية وأثرها في رواد النقد العربي الحديث، لمرجع السابق ص: 42.

ومن غير شك فقد كانت أصداؤهم بيّنة، حيث تعلّموا اللغة الفرنسية في مدارس الإرساليات التبشيرية، وأعجبوا بالثقافة والأدب الفرنسيين، فأرادوا نقل مثار إعجابهم إلى القارئ العربي، فترجموا نصوصاً أدبية، وتحدثوا عن الأدب الفرنسي ضمن كتاباتهم التي ظهرت في عقد واحد من سنة 1897 إلى 1907م داخل ما تضمنه النشاط الأدبي لصحافة الشاميين بمصر.[27]

كما كان لمثل هذه الجهود النقدية أثرها في ظهور واهتمام الجامعة المصرية التي حملت حركة التجديد في الدراسات الأدبية، حيث عمدت منذ نشأتها وتأسيسها عام 1908م دروساً في اللغة العربية وآدابها على غرار ما يدرس في الجامعات الأوروبية.

وقد كان دور المستشرقين واضحاً في تأصيل قواعد المنهج العلمي بالجامعة المصرية، بعد نقل مفاهيم وأسس وقواعد المنهج في الدراسة الأدبية، والواضح في كتابات طلبتهم أمثال: أحمد ضيف في كتاباته التي تدور حول تجديد مفهوم البلاغة العربية كما سيأتي بيانه، وطه حسين ما كان في كتابه (تجديد ذكرى أبي العلاء المعري)، وأحمد أمين في كتابه (حياتي) وغيرهم، ويأتي دور من سبقوهم مثل: الحداد والحمصي و الخالدي أن كان دورهم يكمن في تزويد هذا الجيل الجديد بمعلومات جديدة عن النقد الفرنسي إبان المرحلة الأولى في حياتهم العلمية؛ الأمر الذي حمَّسهم إلى التهافت على تلبية طلب الجامعة للسفر إلى فرنسا لمتابعة استكمال دراساتهم العالية لاستخلاف المستشرقين الذين يعملون في الجامعة المصرية، وبناء على ذلك فقد سافر كل من أحمد ضيف سنة 1912م وطه حسين 1914م ليجدا المنهج التاريخي في الدراسة الأدبية موجة العصر الأدبي والعلمي في فرنسا فتتلمذا على (جوستاف لانسون) وأتباعه منظر المنهج التاريخي يومها، تم تلتحق فيما بعد البعثات الدراسية فيسافر زكي مبارك، محمد مندور سامي الوهان، ومهدي البصير، وغنيمي هلال، وعلى جواد الطاهر، وجودت الركابي، وسهير القلماوي[28].

وقد تتلمذ على هؤلاء تلاميذ تلاميذه وهم الجيل اللاحق لهم مثل: شكري فيصل، ناصر الدين الأسد، ومحمد يوسف نجم وعبد المحسن طه بدر، وتلا هذه المجموعة جيل كبير من الدارسين العرب المعاصرين وكلهم قد تتلمذوا على لانسون[29]. ومن هذه الزاوية يتسرب النقد

(27) ينظر: نفسه، ص: 43.

(28) ينظر: ينظر: رامز الحوراني، نشوء النقد الأدبي وتطوره، مرجع سابق، ج: 2، ص 44.

(29) ينظر: نفسه، ص: 58.

التاريخي والمنهج التاريخي وقد تطور في رؤيته الجديدة على يد لانسون حتى عرف باللانسونية في صورة النقد العربي الحديث في مصر أولا ثم في بقية البلدان العربية، ويعد محمد مندور (1907–1965) الجسر "التاريخي" المباشر بين النقدين الفرنسي والعربي؛ فهو أول من أرسى معالم "اللانسونية" في نقدنا العربي، حين أصدر كتابه (النقد المنهجي عند العرب) مذيلا بترجمته لمقالة لانسون الشهيرة (منهج البحث في الأدب)، وكان ذلك في حدود سنة 1946 ، ثم أعاد طبع هذه الترجمة (مرفقة بترجمته لمقالة مايبه "منهج البحث في اللغة") سنة 1964، ومنذ الستينيات، أخذ النقد التاريخي يزدهر في كثير من الجامعات العربية على أيدي أشهر الأكاديميين العرب الذين تحولت أطروحاتهم الجامعية إلى معالم نقدية يقتفي طلبتهم آثار المنهجية (التاريخية)، حتى ترسخ المنهج التاريخي ورسم فكراً، سيطر على عقلية المثقف الأكاديمي ومن الصعوبة بمكان أن يفكر الباحث الجامعي في بديل لهذا المنهج.[30]

المبحث الثاني

تجلّيات التلقي والتفاعل لدى طه حسين

تجلّيات التلقي لدى طه حسين

طه حسين (1889– 1973م)

بدأت بوادر التلقي ومحاولات التطبيق العلمي للمنهج داخل الدرس الأكاديمي بالجامعة المصرية عقب رجوع أول متلقي لهذا المنهج من فرنسا، لدى طه حسين ويظهر المنهج واضحاً من محاولة الإطلالة على أهم إنتاجه الأدبي كما يظهر تأثر طه حسين بأصداء النقد الفرنسي الأوروبي وكان واضحاً من خلال عاملين أساسيين هما:

- تصريحه من خلال مقدماته وتعليقاته في ثنايا كتبه، فهو يعمد إلى ذلك منها بشكل واضح ومدى تأثره بالمستشرقين والأساتذة وإعجابه بهم.
- اتباعه المنهج التاريخي العلمي في أغلب كتبه ابتداء من أطروحته حول أبي العلاء المعري، فقد أدرك أن تعلّمه على أيدي المستشرقين والأساتذة الأوربيين في دراسة الظواهر

(30) ينظر: إبراهيم عبد الرحمن محمد، مناهج نقد الشعر في الأدب العربي الحديث، مكتبة لبنان، ط:1، 1997م، ص: المقدمة.

الأدبية بقواعد وأسس المنهج العلمي، واقتنع بضرورة الأخذ بالمنهج العلمي في الدراسة والبحث اقتداء بأساتذته المستشرقين، وبالمنهج التاريخي بالذات[31].

بدأت علاقة طه حسين بالمنهج التاريخي منذ أن كان طالباً في الجامعة الأهلية يستمع للمستشرق الايطالي(كارلونالينو) وهو المستشرق الذي كان أحد أساتذة الجامعة، حيث ظل بمنهجه يمحّص كلمة (أدب) متتبعاً تطورها، ومستعرضاً لمراحل الشعر العربي حتى عصر بني أمية، وكذلك تأثره واستماعه إلى (نتلانا) وهو يدرس الفلسفة الاسلامية متتبعاً تطورها، ومنقباً عن روافدها، واستماعه لـ(ليتمان)، وهو يتتبّع تطور اللغات السامية مقارناً بعضها ببعض، حيث كانت الرؤية التاريخية أساس التعليم الجامعي آنذاك، وصارت أصداؤها في أول الأمر بحثاً لطه حسين سنة 1914م [32].

وقد تتلمذ على العديد من الأساتذة الغربيين والفرنسيين على وجه التحديد مثل جوستاف جلوتر أستاذ التاريخ اليوناني، وهو مؤرخ فرنسي، وشارل سينيوبوس أستاذ التاريخ الحديث والفونس أولار أستاذ تاريخ الثورة الفرنسية، كما تتلمذ على، جوستاف لانسون في دراسة الأدب الفرنسي... وغيره من الأساتذة البارزين الذين التقاهم في رحلته إلى فرنسا للدراسات العليا سنة 1914م، ونتيجة لهذا الاحتكاك الثقافي والعلمي تشبّع طه حسين بالروح التاريخية وبالمنهج التاريخي في دراسة الأدب من دراسته التاريخ ومنهجيته عند أكبر أساتذة التاريخ الفرنسيين في مطلع القرن العشرين، وتتّضح رؤيته ومواقفه تجاه المنهج التاريخي من خلال كتبه التي دعا فيها إلى تبني هذا المنهج، ومن تطبيقه إياه.

إنّ طه حسين من تلاميذ (كارنالينو) ومن الذين استمعوا منه، بل وأخذوا عنه وفتنوا بمنهجه العلمي في دراسة الأدب العربي وهو في نظره يمثل نقطة انطلاق الوعي العربي على مستوى الفكر، وبدايات تفاعل الثقافات المختلفة بين الغرب والعرب، وبالقياس إلى الدراسات العربية التي كانت سائدة في المجتمع العربي وخاصة ما كان سائداً في الأزهر؛ فإنه يعد بدايات الثورة الفعلية على التقليد السائد، وانفتاح العقل العربي في رؤية جديدة تتطلّع نحو الأفق، فقد كان من الطبيعي أن يحدث فيهم أعمق الآثار وأبعدها ويحدث فيهم صدى روحياً وأن يطبع الحياة العقلية بطابع النقد الحديث [33].

---

(31) ينظر: طه حسين، تجديد ذكرى أبي العلاء المعري، سلسلة من تاريخ الأدب العربي، دار العلم للملايين، بيروت، ط:1، مج:3، 1974م، ص: 384.

(32) ينظر: عبد المجيد حنون، اللانسونية، مرجع سابق، ص: 155.

(33) ينظر: طه حسين، في الشعر الجاهلي، دار المعارف، سوسة، تونس، ط:2، 1998م، ص 10.

إنّ طه حسين حاول أن يجعل من هذا المنهج صياغة جديدة تجعل منه منهجاً صالحاً لدراسة الأدب العربي وتحقيق حلمه في كتابة تاريخه، ويقصد بذلك إلى المزج بين النزعة العلمية والنزعة الفنية، وقد عبّر عن هذه الغاية تعبيراً قاطعاً في قوله "إنّ تاريخ الآداب يجب أن يتجنّب الإغراق في العلم، كما يجب أن يتجنّب الإغراق في الفن، وأن يتّخذ لنفسه بين الأمرين سبيلاً وسطاً"[34]، وفي هذه الصورة يظهر تأثره الواضح بأستاذه في الجامعة المصرية (كارلونالينو)[35]. ففي هذه الصيغة النقدية المقترحة يحدّد طه حسين السبيل الوسط لمفهوم العلم، متمثّلاً في استكشاف النسخ المخطوطة وتحقيقها، ودراسة النصوص من الوجهة اللغوية الصرفة، وتحقيق نسبتها إلى لغة العصر الذي تنسب إليه.[36]

أما العنصر الفني الذي يدعو إليه طه حسين فهو المزاوجة بينه وبين العلم في صيغته النقدية، وهي رؤية ينتمي بها إلى كتابات القدماء، ويتجلى في حرصه على توثيق الصلة بين النص الأدبي وشخصية منشئه كما يتجلى في التحليلات الفنية التي كان ينتجها من حين إلى آخر، أو هي تحليلات تخضع لمنهج تأثري يعتمد فيه على ذوقه الخاص وثقافته الواسعة، قديمة وحديثة، عربية وأجنبية [37].

ومن حيث التطبيق حاول أن يجعل من الصيغة العلمية النقدية في صورتها الجديدة، وهي صورة لعمليات تطبيقية ظهرت كتاباته عن الشعراء الجاهليين والأمويين والعباسيين، ويصّر على التزامه بذلك تطبيقاً يبلغ حد الصرامة أحياناً، جمع فيها بين عناصر علمية على طريقة سانت بيف، وهيبوليت تين، وبرونتير، غايتها تفسير الأعمال الأدبية والتماس شخصيات أصحابها في مراياها.[38]

المرجعيات الفكرية عند طه حسين:

لقد حمل طه حسين على عاتقه مهمة إنجاز مشروع حضاري وفق تصوره، يسعى إلى تنوير الذهنية العربية، وتجاوز التصورات المحافظة الموروثة، لذا كان لزاماً عليه أن يحتمي بنموذج فكري مغاير، هذا النموذج سيجده في الغرب تحت ستار الفلسفة الوضعية.

(34) ينظر: طه حسين، في الشعر الجاهلي، المرجع السابق، ص:10.

(35) ينظر: كارلونالينو، تطور النقد الأدبي في العصر الحديث، دار ومكتبة الحياة، بيروت، ط:1، 1963م، المقدمة.

(36) ينظر: طه حسين، في الشعر الجاهلي، المرجع السابق، ص15. وكذلك إبراهيم عبد الرحمن، مناهج نقد الشعر، مرجع سابق، ص:11.

(37) ينظر: المرجع السابق، ص:11.

(38) ينظر: نفسه، ص:11- 12.

فبعد عودة طه حسين من فرنسا سنة 1919م، وبعد أن أحرز الفكر الليبرالي في مصر مكتسبات ضد الفكر المحافظ، سينادي "بأنّ الحضارة الأوربية اعتمدت في نهضتها على الحضارة الإغريقية الرومانية والديانة المسيحية، ويجدر بالنهضة العربية أن تعتمد على الحضارة الإغريقية والرومانية والديانة الإسلامية".(39)

وتأتي الفلسفة الوضعية كإطار مرجعي لتصورات طه حسين حول الأدب، وإن لم يتصل طه حسين بهذه الفلسفة مباشرة، فإنه قد تأثر بمجموعة من النقاد الغربيين يرتكزون على أسس هذه الفلسفة، ومن أبرزهم: هيبوليت تين، وسانت بيف، وجوستاف لانسون، وجول لوميتر، كان طه حسين يحرص دومًا على التأكيد على دور الذوق في النص الأدبي، لأنّ الذوق يُعَد عاملاً من العوامل التي يعتمد عليها الناقد التاريخي في دراسة الظاهرة الأدبية. (40)

وكما يشير أحد النقاد أثناء محاورته لفكر طه حسين "وعلى الرغم من واقعية الرأي الأول القائل بوجوب معرفة الشاعر من شعره، إلا أنّ هذا الرأي يُظهِر، بدوره، ضيق أفق في نظرته قليلاً، لأنه قد لا يمكن معرفة الشعراء كلهم من شعرهم ولا الأدباء كلهم من أدبهم (هوميروس الإغريقي مثلاً)؛ ولكنه يبقى من المناهج المفضَّلة في دراسة الأدب والنصوص التراثية. فمنطق هذه الدراسة هو أنّ الأديب أو الشاعر لا يتأثر بكلّيته بالبيئة، وإنما هناك في دواخل كلّ شاعر وأديب أحاسيس وأشياء تتمرد على البيئة وعلى قوانينها ممّا لا يمكن لها التحكم بها أبدًا. على حين يرى معظم النقاد أنّ المنهج الأكثر صوابًا وحكمة هو المنهج الذي تتفاعل فيه شخصية الأديب مع الظروف التاريخية، حتى نصل، من خلال هذا التماهي، إلى معرفة شخصية الأديب الحقيقية. فعلى الناقد الذي يتصدى لقراءة النص قراءةً نقدية أن يغوص في النص ويندمج معه اندماجًا روحيًّا وعقليًّا وفنيًّا، تمامًا كما غاص فيه مُنشِئُه ومبدعُه، ليصل إلى اكتناه جوهره الحقيقي وما يشير إليه من قيم ومفاهيم"(41).

---

(39) ينظر: تصوراته في كتابه الأول في الشعر الجاهلي، المقدمة وما بعدها.

(40) ينظر: قتلة كمال، طه حسين وأثر الثقافة الفرنسية في أدبه، (قضايا الابداع والنقد)، دار المعارف، القاهرة، 1973م، ص:47.

(41) ينظر: محمد ايت لعميم، المتنبي في المناهج النقدية الحديثة، الموقع الالكتروني على شبكة مرجع سابق. د، ت.

وطه حسين يرفض أن يقسّم الأدب إلى عصور سياسية، وأن نربط الأدب بالازدهار السياسي إذ قد "يكون الانحطاط السياسي مصدر الرقي الأدبي أيضاً، والقرن الرابع الهجري دليل واضح على أنّ الصلة بين الأدب والسياسة قد تكون صلة عكسية في كثير من الأحيان"، فالحياة السياسية لا تصلح أن تكون مقياساً للحياة الأدبية، وإنما هي مؤثر من المؤثرات، فينبغي أن يتأسس تاريخ الأدب داخل الأدب "من حيث هو ظاهرة مستقلة يمكن أن تؤخذ من حيث هي وتحدد لها عصورها الأدبية الخالصة". وبالإضافة إلى نقده النظرية المدرسية، فإنه ينتقد أصحاب المقياس العلمي في التاريخ الأدبي وقد رأيناه آنفاً ينتقد كلا من سانت بوف وتين اللذين حاولا أن يقيما تاريخاً أدبياً يستلهم النماذج العلمية، فالمقياس العلمي في نظره يعجز عن تفسير النبوغ، و"مادام التاريخ الأدبي لا يستطيع أن يفسّر لنا بطريقة علمية صحيحة نفسية المنتج والصلة بينها وبين ما تنتج، ومادام التاريخ الأدبي لا يستطيع أن يبرأ من شخصية الكاتب وذوقه، فلن يستطيع أن يكون علماً، والحق أني لا أفهم لم يحرص على أن يكون علما".[42]

بعد عدوله عن المقياس السياسي والعلمي سيتبنى مقياساً أدبياً، وقد تجلّى ذلك في تبنيه لنظرية المذاهب الفنية، وعرض نظريته بشكل تطبيقي عند دراسته لمدرسة زهير، حيث عرض في كتابه "في الأدب الجاهلي إلى مدرسة زهير الفنية وأوضح عن خصائص هذه المدرسة وما تمتاز به، وكشف عن طريقتها من تناول الأشياء وعرضها، ووضع يده على طائفة كبرى من هذه المميزات التي شارك فيها زهير أوس بن حجر من قبله والحطيئة وكعب بن زهير من بعده وجميل بعد الحطيئة، ووجد في هذه السلسلة مذهباً فنياً متكاملاً يأخذ به جيل بعد جيل. [43]

ويتضح تفاعل طه حسين مع الأدب الغربي واضحاً وسيطرة المنهج التاريخي عليه في أهم نتاجاته:

1) **كتابه تجديد ذكرى أبي العلاء المعري**، فقد تسرّبت عناصر التفاعل في أسس المنهج فاقتنع بفكرة الجبر التاريخي التي حاول أن يعيد بها بناء حياة المعري، وهي تقوم على أن المعري كان تكوّنه نتيجة لعدة عوامل صنعته وثمرة ناضجة لطائفة من العلل اشتركت في تأليف مزاجه وتصوير نفسه من غير أن يكون له عليها سيطرة أو سلطان[44].

(42) ينظر: المرجع السابق، ويراجع كذلك: طه حسين، مع المتنبي، دار المعارف، القاهرة، د.ت.

(43) ينظر: محمد ايت لعميم، المتنبي في المناهج النقدية الحديث، مرجع سابق، د، تر.

(44) ينظر: طه حسين، تجديد ذكرى أبي العلا، ص15.

فطه حسين يصرّح بإيمانه بالمنهج التاريخي حيث يسعى لتجميع المعلومات عن المعري وأسرته ليخلص إلى نتيجة أنّ المعري ثمرة من ثمرات عصره، قد عمل في إنضاجها الزمان والمكان والحال السياسية والاجتماعية والحال الاقتصادية(45).

2) **كتابه في الأدب الجاهلي** وفي مقدمة الكتاب يحاول طه حسين أن ينفلت من الجبر التاريخي الذي هو تركيزه على الصلة الحتمية التي تنشأ بين العمل الأدبي والبيئة التي تنتجه لينمو أدباً، فقد حدد مقاييس التاريخ الأدبي فذكر لذلك ثلاثة مقاييس:

أ- المقياس السياسي.

ب- المقياس العلمي.

ت- المقياس الأدبي.

وحاول أن يبيّن علاقة تاريخ الأدب بهذه المقاييس، وفي الوقت ذاته لا ينكر العلاقة بين السياسة والأدب ولكنه لا يحب أن تسرف في أمر هذه الصلة حتى تصبح السياسة مقياساً للأدب(46).

ووضح طه حسين على صعيد المقياس العلمي الخلفية الفلسفية والعلمية التي أسهمت في بلورة المنهج التاريخي مشيراً إلى رائد الفلسفة الوضعية (أوجست كونت)، وهو في ذلك يميل بعض الشيء إلى رؤية سانت بيف النقدية(47)

وأشار إلى ذلك جابر عصفور عندما قال" إنّ موقف طه حسين من سانت بيف يشكّل الاستجابة الثانية التي تنحو منحى نفسياً يتأثر فيه طه حسين -إلى حد ما- برؤية سانت بيف التي تسعى للتعرف على شخصية المبدع، لأنّ التعرف على الشخصية يعني الوصول إلى العلة المباشرة التي أنتجت الأدب وبذلك يمكن النظر إلى الأدب باعتباره ممثلاً للمزاج، وصورة نفسية، أو تعبيراً عن شيء سماه سانت بوف (قسمات النفس)" (48).

---

(45) ينظر: المصدر السابق، ص16.

(46) ينظر: طه حسين، في الأدب الجاهلي، ص39.

(47) ينظر: يراجع ما ذكره طه حسين في كتابه، ص 46- 47.

(48) جابر عصفور، المرايا المتجاورة، دراسة في نقد طه حسين القاهرة، الهيئة المصرية للكتاب، 1983م، ص48.

3) المفاهيم المحددة للعملية التأريخية في كتابه مع المتنبي.

إنّ معالم المنهج التاريخي تبدو جلية في الدراسة التي قام بها طه حسين حول المتنبي، ذلك أنه تتبّع حياة الشاعر منذ صباه إلى وفاته مسترشداً بما جاء في الديوان من إشارات تاريخية، قراءة متحررة من الضوابط فهو يقول "فلنتمرد على الجماعة ولنبدأ بالقراءة، ولنبدأ الاحتياط كله إلى هذا الذي يؤذي الشر والأخلاق"[49] وكان يرغب من وراء هذه العملية أن يعيد تشكيل حياة الشاعر كما ظهرت من خلال ديوانه، فما هي إذن المفاهيم التي توسلها للقيام بهذه العملية التاريخية؟ لقد تداخلت عدة مفاهيم ضمن دراسته لتنهض بإعادة تشكيل تاريخ المتنبي الشعري والحياتي. وأولى المفاهيم المعتمدة لدى طه حسين هي أنّ إعادة كتابة التاريخ لا تعتمد على المرويات والاخبار المتداولة حول حياة الشاعر في القديم، لذلك اكتفى بالنص كمعيار أساسي في التأريخ[50].

النص يؤرخ لصاحبه:

انطلاقاً من المفهوم الوضعي الذي يعتبر النص وثيقة، سيعيد طه حسين كتابة تاريخ المتنبي، إذ تتبّع حياته من خلال استقرائه لأشعاره، باحثاً عن الإشارات التي من شأنها مساعدته في تركيب حياته وترتيب تطورها، من هذا المنطلق " تستطيع أن تقول في البداية أنّ طه حسين كان يهدف إلى تقديم نموذج من القراءة يمكن بها صياغة التاريخ الأدبي معتمدين في ذلك على النص الثابت الصحيح الذي يستطيع وحده أن يقوّم بناءً تاريخياً صحيحاً في إمكانه أن يلغي جميع التأويلات التي لا تثبتها النصوص وألاّ يقبل من إخبار الرواة المؤرخين إلاّ ما يوافقها[51].

إنّ هذا الترتيب التاريخي لديوان المتنبي يكشف عن الأسباب التي ساعدت طه حسين إلى اختيار المتنبي موضوعاً لدراسته التاريخية، وميداناً لتطبيق رؤيته تجاه المنهج التاريخي فقد "دعا منذ زمن مبكّر إلى أنّ التاريخ الأدبي ينبغي أن يصدر عن النصوص الموثوقة، والمؤرخة لذلك فقد شكّ في صحة الشعر الجاهلي لأنه لا يوصل إلى تصوير الحياة الجاهلية، من هذا المنطلق يرى أنّ قيمة النص تكمن في مدى تمثيله لروح العصر والشخصية التي صدر عنها، إنّ الترتيب

(49) ينظر: طه حسين مع المتنبي، القاهرة، دار المعارف، د.ت، ص11.

(50) ينظر: كما هو واضح من منهجية الناقد في الفصلين الأولين، في كتابه مع المتنبي، مرجع سابق.

(51) ينظر: المصدر السابق، ص46.

التاريخي للنصوص يعتبر لديه الطريقة المعقولة في دراسة الأدب لأنه يساعد على رصد تطور الشاعرية عند الشاعر"[52] كما فعل ذلك في دراساته الأخرى وعلى سبيل التمثيل، تجديد ذكرى أبي العلاء المعري، وكتاباته عن الأخطل الذي درس فيه شعره مرتباً ترتيباً تاريخياً، حيث يأخذ جانب الطور التاريخي حضوره وهي سمة من سمات المنهج التاريخي التي يستند عليها "... بمعنى أن ندرس شعر الأخطل في شبابه ثم نتابع دراسته بعد أن تقدمت به السن ثم نواصل هذه الدراسة بعد أن تم له النضج الفني"[53].

الخاتمة

مما سبق يمكن الوقوف على نتيجة أولى من نتائج البحث وهي أن المنهج التاريخي": يقوم على دراسة الظروف السياسية والاجتماعية والثقافية للعصر الذي ينتمي إليه الأدب، ويتخذ منها وسيلة أو طريقاً لفهم الأدب، وتفسير خصائصه واستجلاء كوامنه، وغوامضه، لأنّ اتباع هذا المنهج –كما رأينا– يؤمنون بأنّ الأديب ابن بيئته وزمانه والأدب نتاج ظروف سياسية واجتماعية يتأثر بها ويؤثر فيها، ويهتم المنهج التاريخي أساساً بدراسة العوامل المؤثرة في الأدب، وأنّ السياق التاريخي والسياسي والاجتماعي ضروري لفهم الأدب وتفسيره، لذا "لا يكون الأديب (المبدع) عبقرياً لو تقدم عصره أو تأخر عنه ما دامت عوامل البيئة قد وجّهته، وأفرزته إلى هذه الوجهة"[54].

وآخرا.. يمكن اعتبار ما توصل إليه الباحث من خلال محاولته لرصد بدايات التفكير النقدي وتفاعلها مع النص الأدبي، في المستخلصات العلمية التي تشير إلى إمكانية الوقوف عليها وهي في النقاط المختصرة الآتية:

1) أهم ما يشير إليه البحث هو تفاعل النقد الأدبي الحديث وخضوعه لمفاهيم النقد الغربي مع انسلاخه من جلدة التراث في إطار آخر.
2) ظهور بدايات ملامح تفاعل النقد الغربي مع الاتصال المباشر بالغرب.
3) بروز ملمح التلقي عند طه حسين واضحاً في أشهر كتبه.

---

(52) ينظر: نفسه، المقدمة.

(53) ينظر: المرجع السابق ، دتر.

(54) ينظر: ماهر فهمي، المذاهب النقدية: مكتبة نهضة مصر، ط 1، القاهرة، د.ت، ص:181.

4) تطور الفكر المنهجي التاريخي لدى طه حسين من خلال تفاعله مع المنهج اللانسوني ومن ثم يبرّر نقده لزعماء المنهج التاريخي في بداياته أمثال سانت بيف وتين وغيره.
5) تبعية النقد للفلسفة وتأثيرها على نمط الحياة.
6) أهمية المنهج التاريخي في الكشف عن المتعلق بسياق النص، سواء كان اجتماعياً أم سياسياً....الخ.
7) أسهم النقد الغربي في الكشف عن مضمون التراث العربي، ودراسته بصورة منهجية تختلف في سياقها ونتائجها عما كان سابقاً.
8) تحولات المنهج نابعة من تحولات التفكير في بنية المجتمع.
9) ملائمة المنهج التاريخي للنص العربي بالسبل والطرق التي طورها الرواد الأوائل كما هي الدعوة عند طه حسين وغيره.
10) انشغال الفكر النقدي بالمنهج التاريخي حتى تأخر كثيراً.
11) سيطرة الاهتمام بجنس الشعر وإهمال الأجناس الأخرى في علاقتها مع النهضة الفكرية لبنية الفكر النقدي.

وختاماً فقد حاول الباحث الوقوف على أهم مرتكزات التفاعل العربي مع الغرب في صورة المنهج التاريخي بوصفه أهم المناهج القديمة التي تخدم أو خدمت النص الأدبي، وقد كان ذلك من زاوية التأصيل تلاحظ في النقد الغربي، وكيفية تلقيه عند طه حسين بوصفه أبرز نقاد العرب الذين سيطر عليهم المنهج التاريخي ودعا إليه.

المصادر والمراجع

المراجع العربية:

1- إبراهيم عبد الرحمن محمد، مناهج نقد الشعر في الأدب العربي الحديث، مكتبة لبنان، ط:1، 1997م.

2- أحمد أمين، النقد الأدبي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط:4، 1967م.

3- أنيس النصولي، أسباب النهضة العربية في القرن التاسع، حققه وقدم له، عبد الله الطباع، دار ابن زيدون، بيروت، ط:1، 1985م.

4- جابر عصفور، المرايا المتجاورة، دراسة في نقد طه حسين القاهرة، الهيئة المصرية للكتاب، 1983م.

5- جورجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، مراجعة شوقي ضيف، دار الهلال، القاهرة، 1957م.

6- حلمي مرزوق، تطور النقد والتفكير الأدبي الحديث في الربع الأول من القرن العشرين، النهضة العربية، بيروت، ط:1، 1983م.

7- رامز الحوراني، نشوء النقد الأدبي وتطوره، منشورات جامعة سبها، ليبيا.

8- صلاح فضل، مناهج النقد المعاصر، دار الآفاق العربية القاهرة، ط:1، 1997م.

9- طه حسين، تجديد ذكرى أبي العلاء المعري، سلسلة من تاريخ الأدب العربي، دار العلم للملايين، بيروت، دار المعارف، القاهرة، 1963 م.

10- طه حسين، في الشعر الجاهلي، دار المعارف، سوسة، تونس، ط:2، 1998م.

11- طه حسين، مع المتنبي، دار المعارف، القاهرة، 1970م.

12- عبد المجيد حنون، اللانسونية وأثرها في رواد النقد العربي الحديث الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط:1، 2006م.

13- فائق مصطفى وعبد الرضا علي، في النقد الأدبي الحديث، منشورات جامعة الوصل، العراق، ط: 1، 1989م.

14- كمال قلتة، طه حسين وأثر الثقافة الفرنسية في أدبه (قضايا الإبداع والنقد)، دار المعارف، القاهرة، 1973م.

15- ماهر فهمي، المذاهب النقدية: مكتبة نهضة مصر، ط 1، القاهرة، د، ت.
16- مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، ط:4، 2004م.
17- محمد منذور ترجمة، النقد المنهجي عند العرب منهج البحث في تاريخ، القاهرة، دار نهضة مصر، 1970م.
18-محمد منذور، منهج البحث في الأدب واللغة، دار العلم للملايين، بيروت، ط:2، 1982م.
19- ابن منظور، لسان العرب، ج: 8، دار الحديث، القاهرة، 2003م.

المراجع الأجنبية:

1- جان لوى كابانس، ترجمة فهد عكام، دار الفكر، سوريا، ط:1، 1982م.
2- جان لوي كابانس، النقد الأدبي والعلوم الإنسانية، ترجمة: فهد عكام، دار الفكر، سوريا،ط:1، 1982م.
3- ستانلي هايمن، النقد الأدبي ومدارسه الحديثة، ط ا: ت: د.إحسان عباس ود. محمد يوسف نجم، دار الفكر العربي، بيروت.
4- كارلونالينو، تطور النقد الأدبي في العصر الحديث، دار ومكتبة الحياة، بيرو، ط:1، 1963م.

المراجع الالكترونية

1- محمد ايت لعميم، المتنبي في المناهج النقدية الحديث، الموقع الإلكتروني على شبكة المعلومات لشركة صخر لبرامج الحاسب 1998-2006.
2- منتديات ستار تايمز، المكتبة الإلكترونية شبكة المعلومات الدولية الإنترنت. د، تر.